

تجارة زيت الزيتون في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرنين (2. هـ / 10.8 م)

د . عبد الباسط محمد عطوة

قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم قصر خيار / جامعة المرقب

المقدمة

يتمتع البحر الأبيض المتوسط بموقع استراتيجي هام، إذ يتوسط قارات العالم وحلقة وصل بينها، وقد قسم هذا البحر إلى حوضين غربي وشرقي، وإلى جانب هذه الأهمية، تميزه بمناخ بيئي معتد متنوع الفصول تثبتتها درجات الحرارة والبرودة، والثابت تمتع حوضي هذا البحر، بمناخ حار جاف صيفا، بارد مطر شتاء، وهو ما ساعد على انتشار بعض المزروعات أهمها شجرة الزيتون الذي تعتبر سواحله موطنها الأصلي، ما يدل على الارتباط الوثيق الذي مرده إلى الخصائص المناخية للإقليم، التي أسهمت في انتشار زراعتها في المناطق الساحلية المطلة على البحر المتوسط .

استغلت البشرية هذه المقومات لتغيير الطبيعة النباتية لصالحها في الإقليم بغرس الأشجار التي تعيش عليها وتستفيد منها، فهناك العديد من الأشجار تحتاج إلى مياه ورطوبة في الهواء المحيط بها، كشجرة الزيتون التي يستخرج منها الزيت، أحد السلع الحيوية في تجارة الحوض الغربي للبحر المتوسط، والتي أسهمت في التواصل بين ضفتيه الشمالية والجنوبية .

بناء على ذلك، جاء اختيار موضوع البحث ليكون بعنوان: تجارة زيت الزيتون في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرنين (2. هـ / 10.8 م). وذلك بتتبع حقيقة تداول هذه السلعة في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال هادين القرنين، وأثرها في تطور مراكز الإنتاج وتوزيعها، وفيما أسهمت به في ربط الصلات التجارية بين الشمال والجنوب .

وتم تقسيم هذا الموضوع إلى ثلاث مباحث رئيسية على النحو التالي:

- 1 - المبحث الأول: ركز على دراسة العوامل الطبيعية للبحر المتوسط، والتركيز على مراكز إنتاج زيت الزيتون التي أصبحت فيما بعد من أهم مراكز التواصل بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط.
- 2 - المبحث الثاني: تناول آليات وأدوات تجارة زيت الزيتون في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وتعدد المكاييل من أهم الأدوات المتبعة في تجارة الزيت خلال القرنين الثاني والرابع الهجريين / الثامن والعاشر الميلاديين، وكذلك وسائل النقل وأهميتها في نقل الزيت من مراكز الإنتاج إلى مناطق الاستهلاك.

3 – المبحث الثالث: اختص بالنظم المستخدمة في تجارة زيت الزيتون والمتمثلة في الأسواق كأحد أبرز التعاملات التجارية المتبعة من قبل تجار الزيت . ومحاولة إبراز أوجه التشابه في التعامل التجاري بين الشمال والجنوب، ودور الشركة كداعم حقيقي وأساسي لتلك النظم لأهميتها في تحقيق التواصل بين الجانبين.

أما فيما يتعلق بمصادر ومراجع البحث، تأتي المصادر الجغرافية الأولى في الأهمية، لانفرادها في توضيح أهمية الحوض الغربي للبحر المتوسط الجغرافية والاقتصادية، والتي أمدتنا بمعلومات قيمة في العديد من الجوانب، إضافة إلى المصادر الأدبية والفقهية لاحتوائها على النظم التجارية المتبعة في تجارة الزيت، على الرغم من قلة المعلومات، إلا أن التنف التي تحصل عليها الباحث، أسهمت في توضيح بعض التنظيمات التجارية المتبعة في تجارة زيت الزيتون بالحوض الغربي للبحر المتوسط واستعان الباحث ببعض المراجع العربية والأجنبية المعربة التي لها أهمية في موضوع البحث .

العوامل الطبيعية في الحوض الغربي للبحر المتوسط

1- المناخ :

يوصف مناخ البحر المتوسط بأنه حار جاف صيفاً، معتدل ممطر شتاءً، وتعتبر درجة الحرارة في الحوض الغربي متقاربة إلى حد كبير بين صفتيه، إذ أنها لا تختلف بنسبة كبيرة⁽¹⁾. ففي الضفة الشمالية تتراوح درجة الحرارة في فصل الصيف وفصل الشتاء ما بين 8 درجات و25 درجة مئوية، ولا تختلف كثيراً عن درجة الحرارة بالضفة الجنوبية للحوض، وذلك بسبب التشابه والتقارب في العوامل المناخية والطبيعية الذي جعل الفارق في درجات الحرارة ضئيلاً لا يكاد يذكر. الأمر الذي أسهم إلى حد كبير في وحدة منتجاته الزراعية⁽²⁾، ونتيجة تفاعل هذا المناخ مع العوامل الطبيعية داخل الحوض نتج عنه بيئة ملائمة لنمو شجرة الزيتون .

يعتبر إقليم البحر المتوسط منطقة التقاء الرياح الغربية التي تهب في فصل الشتاء فتجلب لها الأمطار، حيث تؤثر عليها الكتل الهوائية الرطبة والمنخفضات الجوية المصاحبة لها. وتهب الرياح التجارية الشمالية الشرقية في فصل الصيف، وهي رياح جافة تقع تحت تأثير نطاق ضغط عال⁽³⁾.

تتساقط الأمطار في الحوض الغربي للبحر المتوسط في فصل الشتاء على الخصوص، وتتلقى سواحل الضفة الشمالية المشرفة على ذلك البحر كميات من الأمطار، ونظراً لاعتراض مرتفعات الابنين وسلاسل الألب لهبوب الرياح الغربية نجد أن السفوح الغربية لتلك المرتفعات غزيرة المطر⁽⁴⁾. أما في الضفة الجنوبية فيقتصر سقوط الأمطار على فصل الشتاء متأثراً بانخفاض درجات الحرارة لامتداد البحر المتوسط في المنطقة المعتدلة الدافعة بين صفتيه الشمالية والجنوبية،

1- حسن، محمد إبراهيم، جغرافية الوطن العربي وحوض البحر المتوسط، جامعة الإسكندرية، ج2، 2001م، ص 22

2- أبو صوه، محمود أحمد، دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط، منشورات قاليينا، مالطا، 2000، ص18

3- جوده، حسين جوده، جغرافية أوروبا الإقليمية، دار المعارف، الإسكندرية، الطبعة 11، 1988م، ص 67 .

4- حسن، محمد إبراهيم، جغرافية الوطن العربي، ص 26.

منطقة للضغط الجوي المنخفض في حين يكون الضغط المرتفع على اليابس في الشمال والجنوب . ويقع البحر المتوسط في منطقة التقاء بين كتل هوائية مختلفة من حيث درجات الحرارة والرطوبة ما يتيح الفرصة لنشوء جبهة قطبية تتحرك على اليابس الأوروبي باتجاه الجنوب لكي تتمركز عليه في فصل الشتاء⁽¹⁾.

يمتاز مناخ البحر المتوسط بظاهرة تذبذب مياه الأمطار لأنه يتعرض لمساحة كبيرة لتحركات الأعاصير طوال العام، حيث تتفاوت كميات الأمطار فيه في المرتفعات والمناطق الداخلية⁽²⁾. وعلى سبيل المثال في الضفة الشمالية تصل كمية الأمطار في مدينة جنوه إلى 760 مم، وتصل في مدينة ريجو المطلية على مضيق مسينا إلى 750 مم أما في مدينة برجس فأما معدلات مياه الأمطار لا تتجاوز 550 مم، وتتراوح كميات الأمطار فوق سهل لمبارديا وهي عادة لا تقل عن 500 مم سنويا ، وتتفاوت كميات الأمطار في سردينيا ما بين 650 مم و750 مم⁽³⁾.

أما في الضفة الجنوبية فأما معدلات مياه الأمطار على سبيل المثال تبلغ في مدينة طرابلس حوالي 415 مم ، وفي مدينة تونس حوالي 415 مم في حين تكون كمية المطر السنوي حوالي 750 مم في مدينة الجزائر⁽⁴⁾ . وتشهد الحياة في هذا الإقليم المعتدل الممطر شتاء تنوعاً كبيراً في جفاف المناخ بين فصل الصيف وفصل الشتاء ، مما يؤدي إلى خصائص تتميز بها الحياة النباتية الطبيعية التي تساعد على انتشار الأشجار المثمرة في هذا الإقليم ، أهمها أشجار الزيتون المنتشرة على كافة سواحله الشمالية والجنوبية.

امتازت أشجار الزيتون المنتشرة في المناخ المعتدل الممطر شتاء بأن تكون لها القدرة على العيش في الجفاف وارتفاع معدلات التبخر في فصل الصيف، وبالتالي فإن هذا المناخ يساعد على انتشار الزراعة البعلية ، خاصة وأن أشجار الزيتون تنمو في الحوض الغربي للبحر المتوسط دون الاعتماد على الري المستمر⁽⁵⁾ .

اعتمد سكان الحوض الغربي للمتوسط على مياه الأمطار في الزراعة فأقاموا المواجهل والسدود، يقول أبو الفداء أن "مدينة القيروان شرب أهلها من ماء المطر تتجمع في الشتاء في برك عظام تسمى المواجهل، ولهم وادي في قبلي المدينة فيه ماء، ويستعمله الناس فيما يحتاجونه"⁽⁶⁾ . وبني سكان الضفة الجنوبية ماجل بمدينة القصر القديم ويعلل البكري بناء هذا

1- جودة حسين جودة ، جغرافية أوروبا الإقليمية ، ص 484.

2- حسن محمد إبراهيم، جغرافية الوطن العربي ، ص 27.

3- جودة ، حسين جودة ، جغرافية أوروبا الإقليمية ، ص 574.

4- الشامي ، صلاح الدين ، الصقار ، فؤاد محمد ، جغرافية الوطن العربي الكبير ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط2، 1972م، ص 224 .

5- الجوهري ، يسري ، جغرافية البحر المتوسط ، منشأة المعارف ، الإسكندرية، 1984م ، ص 21.

6- إسماعيل بن محمد ، تقويم البلدان ، دار صادر ، بيروت (د.ت) ص 145.

الماجل فيقول " إذا قحطت القيروان وفقد الماء في مواجهها نقلوا الماء إليها من مدينة القصر القديم"⁽¹⁾، ولم يكن هذا الماجل الوحيد بل كان بالمهدية مواجل متعددة بلغ عددها ما يقارب ثلاثمائة وستون ماجلاً⁽²⁾.

وفي الضفة الشمالية يضيف البكري أن خلف الخادم مولى زيادة الله بن إبراهيم الأغلب بنى مواجل في جزيرة مالطا⁽³⁾. و تكون الأمطار نادرة في مدينة المرية ، وأن أمطرت سماء المرية فإن مياه الأمطار تحدث سيولاً جارفة تؤلف وديناً تصب في مياه البحر، وأكبر هذه الوديان وادي بجاية الذي يغلب عليه الجفاف لأن مياهه في جوف الأرض، وعرفت المناطق الصالحة للزراعة في المرية بوقوعها على وادي بجانة حيث كانت تزرع فيه أشجار الزيتون⁽⁴⁾. وما كان عليه وضع المياه في ضفتي الحوض الغربي للبحر المتوسط الشمالية والجنوبية من تناغم وتشابه ، فإن التربة لا تقل أهمية خاصة وإن انتشار بعض أنواعها في مدن الإقليم ، أسهم في زراعة أشجار الزيتون في الإقليم بأكمله .

2- التربة :

تعد التربة أحد عناصر البيئة الطبيعية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ،فهي الطبقة السطحية التي يغرس فيها النبات جذوره ويمتص الغذاء والماء فيها ، وهي طبقة المفتتات السطحية التي تتراوح سمكها بين بضع سنتيمترات إلى عدة أمتار، فهي إما أن تكون مشتقة من صخور موضعية أو منقولة عن طريق عوامل النحت والنقل والإرساب (المياه ، الرياح ، الجليد) من مكان إلى آخر⁽⁵⁾.

تنتشر في ضفتي الحوض الغربي للبحر المتوسط عدد من أنواع التربة أهمها التربة الحمراء، وهي من نوع التراتب الصلصالية الثقيلة، ومشتقة من الصخور الجيرية مع أكاسيد الحديد . وتسمى التربة الحمراء بتربة التراسا terrarossa، وتكونت في إقليم البحر المتوسط من صخور كلسية وفي ظروف مناخية ذات شتاء ممطر وصيف جاف، ومن أهم خصائصها أنها تربة تراكتت في شقوق وقيعان الأودية الجافة والمنخفضات، وكذلك عميقة ونسيجها طيني وفقيرة من المواد العضوية⁽⁶⁾.

والتربة الحمراء، هي تربة غنية بالمواد الجيرية ولكنها فقيرة في مواد الدبال وقيمتها محدودة ، وتشغلها عادة مزارع الزيتون في الحوض، وتوجد التربة الحمراء عادة في أجزاء من جنوب شرق إسبانيا ،وفي الوادي الأدنى لنهر الرون ،وفي منحدرات الابنين وكورسكا وسردينيا⁽⁷⁾.

1- البكري ، أبو عبيده ، المسالك والممالك ، تحقيق وتقديم أدريان فان ليو فان ، وأندرى فيري ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ج 2، ص 680.

2- المصدر نفسه ، ص 682 .

3- المصدر نفسه ، ص 486 .

4 السالم ، السيد عبد العزيز ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، دار النهضة العربية، بيروت لبنان ، 1969 ، ص 16.

5- الديب ، محمد محمود ، جغرافية الزراعة ، تحليل في التنظيم المكاني ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة (د ت) ص ، ص 280-281

6- أبو سمور ، حسن ، الجغرافية الحيوية والتربة ، دار المسرة للنشر ، عمان الأردن ، 2005م ، ص 289.

7- جودة ، حسين جودة ، الجغرافية المناخية والحيوية ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة 1999م ، ص 437.

ويحتوي الحوض الغربي للبحر المتوسط على التربة الرسوبية الفيضية في معظم الأودية النهرية بصفته الشمالية والجنوبية ، التي تستثمر بالنمو الحضاري منذ أقدم عصور التاريخ، وما تنبته من حضارات زراعية ، الأمر الذي أجهد التربة على طول هذا المد الحضاري⁽¹⁾. أما تربة الجزر الشاطئية، فهي تنتشر أمام شواطئ الحوض الغربي للبحر المتوسط الشمالية والجنوبية ، وكانت في الأصل أشباه جزر قطعت بفعل تآكل الأمواج بما ترتبها من أصل قاري، وترتفع بما نسبة التفتتات القوقعية البحرية ، مما يجعلها صالحة لنمو مختلف أشجار البحر المتوسط، والتي أهمها أشجار الزيتون⁽²⁾. يوجد في إقليم البحر المتوسط ما يعرف بالتربة السمراء ، وهي تمتد على طول السهل الساحلي للضفة الجنوبية وسهول الضفة الشمالية ، وأهم ما يميز هذه التربة ارتفاع نسبة العناصر العضوية المتحللة، وهي أجود أنواع التربة⁽³⁾.

أسهم انتشار الأودية الجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وتدفق مياه السيول في الأودية الجافة لاسيما الشمال الأفريقي في نقل التربة والتفتتات الصخرية من مكان ترسبها إلى مكان آخر، مما أدى إلى خلق ما يعرف بالتربة المنقولة، أما انخفاض درجات الحرارة تدريجياً بين السهول الساحلية والقمم الجبلية على طول السياج الجبلي الضخم الذي يحيط بالحوض، فإنه يؤدي إلى تفاوت كبير في مدى نشاط بكتيريا التربة لتركيز الأزدت من السهول وتحوله إلى مادة فعالة في التربة⁽⁴⁾.

يبدو أن فترة امتداد الجفاف الصيفي مهمة جداً في تكوين التربة في إقليم البحر المتوسط ، لأن امتدادها يفرز سلسلة من التربة تتراوح بين الترابية والبنية لفترة جافة أقل من شهر. بينما ترب السينامون تمتد فترة الجفاف فيها إلى خمس أو ستة أشهر، وأن فترة الجفاف هذه تؤدي إلى نشوء نوع من تكوينات التربة المتكلسة، وهي مرحلة انتقالية لتربة البحر المتوسط الحمراء والبنية، وباعتبار أن أشجار الإقليم الأساسية من نوع الغابات الدائمة الخضرة فإن جزء منها ينمو في التربة غير الكلسية والجزء الآخر ينمو في التربة الكلسية⁽⁵⁾.

وتعتبر رطوبة التربة من أهم العناصر المناخية التي تؤثر في توزيع الأشجار، فعن طريق الماء تنمو خلاياها، كما يمددها بالعناصر الغذائية، ويساعدها على التحكم في درجات الحرارة عن طريق عملية التبخر والنتح ، وهو ما جعل رطوبة التربة عنصر حيوي، وأصبحت الأشجار في المناطق التي تزداد فيها عملية النتح والتبخر بسبب قلة الرطوبة النسبية بالجو توائم نفسها مع هذه الظروف، بأن يكون لها أوراق سميكة أو شوكية أو مغطاة بطبقة شمعية لكي يقلل ذلك من عملية النتح، إذ يكون لهذه الأشجار جذور طويلة ومنتشعة تصل إلى رطوبة التربة السفلية ، وتجمع أكثر قدر ممكن منها⁽⁶⁾. أهمها

- 1- حسن ، محمد إبراهيم ، الجغرافية الإقليمية والاقتصادية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، 1998 ، ص 184 .
- 2- حسن، محمد إبراهيم ،جغرافية الوطن العربي وحوض البحر المتوسط ، ص 334 .
- 3- حسن ، محمد إبراهيم ، الجغرافية الإقليمية و الاقتصادية ، ص 183 .
- 4- حسن ، محمد إبراهيم ، جغرافية الوطن العربي والبحر المتوسط ، ص 334 .
- 5- برجيس ي، م. ، ترب العالم ، ترجمة سامي عبود العامر ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1986م ، 126 .
- 6- صادق ، دولت أحمد ، علي ألينا ، أسس الجغرافيا العامة ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، 1996 ، ص 184 .

أشجار الزيتون التي تحتوي على الجذور الطويلة، وأوراقها المغطاة بالطبقة الشمعية التي تساعدها في المحافظة على عدم فقدان الرطوبة.

3- الأشجار :-

تسود بعض الأشجار حوض البحر المتوسط ، وتمتاز بأوراقها القليلة الصغيرة وسطحها الأملس الناعم، الذي يحول دون فقدان الماء بسرعة، وتأتي أشجار البلوط والزيتون كأحد أهم أشجاره، وبعض الأشجار المخروطية كالأرز والسرور، كما يمتاز بأشجار الفاكهة من كمثرى، وخوخ، وتفاح، ولوز، وتين، وكروم، المنتشرة في معظم أرجاء الحوض الغربي للبحر المتوسط⁽¹⁾.

تنمو شجرة الزيتون بإقليم البحر المتوسط في الجهات التي لا تتعرض للصقيع، وينتج الزيتون الذي يعصر زيتة ويسود استعماله بين سكان الحوض الغربي للمتوسط، وتتركز زراعته بالضفة الشمالية، في سهول الأندلس وفي حوض نهر الوادي الكبير، وتعتمد مرسليليا على زيتة، كما يزرع في السفوح الجبلية المطلة على الحوض، وتنمو أشجار الزيتون في جزيرة مالطا التي تسكنها الروم⁽²⁾.

كما انتشرت أشجار الزيتون في قسبة قوصرة، حيث عني بها المسلمون عناية كبيرة أثناء تواجدهم فيها، ونقلوا إليها من نصارى صقلية، وهجروا إليها عدداً من فلاحى العرب والأفارقة للعمل بالزراعة بها⁽³⁾.

أما في الضفة الجنوبية، فإن أشجار الزيتون تنتشر في لبددة، وصفاقس، والمهدية وبجاية، وتتكون في السواحل الجنوبية للمتوسط أسواق الزيت، لحاجة الشمال الماسة له لجودته ولرخص ثمنه وكثرة استخدامه⁽⁴⁾.

المحصّر انتشار شجرة الزيتون في إقليم الحوض الغربي للبحر المتوسط، وأصبحت مدنه الساحلية مركزاً للإنتاج والتصدير، خاصة وأن بعض المصادر التاريخية عبرت عنها باحتوائها على غابات من أشجار الزيتون، ويؤكد البكري وابن حوقل ومؤلف كتاب الاستبصار عن مدينة صفاقس بأنها "في وسط غابة زيتون، وزيتها أطيب من كل زيت إلا الشرفي،

1- محمد إبراهيم، جغرافية الوطن العربي، ص 23 .

2- الحميري الروض المعطار ص 520 .

3- طرفان، إبراهيم علي، المسلمون في أوروبا العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1966 م، ص 98.

4- عقيل، محمد فاتح، جغرافية الموارد والإنتاج، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط 3 (د.ت) ص، 649

ومنها يمتار أهل افريقية ، وتحمله المراكب إلى بلاد الروم ، وعليه معول أهل صقلية و أنكبو ردة⁽¹⁾ . ومدينة لبدة " أشجار الزيتون بما كثيرة وأن أهلها يستخرجون زيتته في وقته⁽²⁾ .

يذكر التجاني أنه عندما فتح عبد الله بن أبي سرح أفريقية وقتل ملكها وجد أكثر أموالهم الذهب والفضة، فضم منها ملئ أيدي جنده وسألهم "أني لكم هذا فجعل أحدهم يلتمس شيئاً في الأرض حتى أتاه بنواة الزيتون فقال له: من هذا أصبنا هذه الأموال"⁽³⁾ . ولانتشار أشجار الزيتون وكثافتها ، أن اقتزنت بعض مناطق الإنتاج بالزيت، حيث عرفت مدينة باجة (بياجة الزيتون)، لأنها تقع في وسط غابة كبيرة من الزيتون دائم الخضرة⁽⁴⁾ . كما كانت شجرة الزيتون أول محصول نباتي يستخرج منه الزيت في حضارات الشرق الأوسط والبحر المتوسط القديمة، والسبب الذي دفع السكان هو النقص الواضح في الحيوانات بإقليم البحر المتوسط لقلّة المراعي، وانحصرت مساحات السكان في الأودية الخصبة الضيقة وسط سلاسل الجبال الكثيرة في الحوض، إضافة إلى ذلك أن شجرة الزيتون تستطيع أن تستمر لسنين طويلة تصل قرناً من الزمان، و بالتالي فهي مصدراً ممتاز للغذاء، وعليه كان نطاق البحر المتوسط خاصة الحوض الغربي منه وشجرة الزيتون نطاقاً جغرافياً واحد ومحدد منذ العصور التاريخية، وما زالت منطقة البحر المتوسط المنتج الأول للزيتون ، خاصة وأنه يدخل في الاستهلاك الغذائي بنسبة كبيرة⁽⁵⁾ .

ويتفق توزيع أشجار الزيتون مع إقليم البحر المتوسط ، لدرجة أن البعض يرى أنه حيثما توجد شجرة الزيتون يتمثل مناخ البحر المتوسط والحوض الغربي الذي هو جزء منه، لأن خصائص هذا الإقليم من حرارة مرتفعة في فصل الشتاء ومطر شتوي يتبعه جفاف صيفي تلائم شجرة الزيتون إلى حد كبير، فأصبح الارتباط وثيقاً بينهما ، وتعتبر المناطق الساحلية للإقليم مناطق نباتية، لأنها تجمع ما بين الأقاليم الصحراوية الجافة في الجنوب ، والأقاليم المعتدلة الرطبة طوال العام في الشمال⁽⁶⁾ .

من الطبيعي أن يلائم مناخ البحر المتوسط شجرة الزيتون ، باعتبارها من الأشجار المقاومة للجفاف بطريقة أو بأخرى، وذلك لاجتماع فصل الجفاف مع فصل الحرارة فتكون لنفسها جذوراً طويلة تضرب في التربة لأعماق بعيدة، وكذلك تغطي أوراقها بطبقة شمعية، واحتوائها في قشور تماره على طبقة زيتية، فضلاً عن طرق أخرى للاحتفاظ بالرطوبة⁽⁷⁾ .

- 1- أبو عبيدة ، المسالك والممالك ج 2 ، ص 669، ابوالقاسم ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ط 1979م ص78. مؤلف مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبدا حميد ، دار الآفاق العربية ، بغداد ، 1986 م ، ص160
- 2- المصدر نفسه ، ص 508 ، بريان بلوية قصة مالطا ، ترجمة مصطفى جودة ، بيروت لبنان 1969 م ، ص 35.
- 3- التجاني، أبو محمد عبد الله ، رحلة التجاني ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، 2005م ، ص 88 .
- 4- الأنصاري ، شمس الدين أبي عبد الله ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، (د ت) ، ج 1 ، ص 245 .
- 5- رياض ، محمد ، الجغرافية الاقتصادية وجغرافية الإنتاج الحيوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط 4 ، 1996م ، ص 284.
- 6- حسن ، محمد إبراهيم ، جغرافية الوطن العربي ، المرجع السابق ، ص 29
- 7- سعودي ، محمد ، الوطن العربي ، دراسة لملاحم الجغرافية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، (د.ت) ص 88.

والمتبع لعملية عصر زيت الزيتون طريقتان ، أولهما بواسطة معصرة ذات لوالب حيث يتم سحق حبات الزيتون في طاحونة تحركها الحيوانات ، مثل الطواحين التي كان يستعملها الرومان قديماً . ويطلق عليها اسم معصرة ، ويسمى الزيت الذي يستخرج بهذه الطريقة (بالمعصري) ، وما يبقى بعد العصر يسمى (فيثور) ، وهو ما زال يحتوي على شيء من الزيت . وهناك طريقة أخرى أبسط وهي تتمثل في غسل حبات الزيتون بالماء الحار وتحويلها إلى عجينة ، ثم وضعها في أوان مختلفة ، فيطفوا الزيت على السطح ، ويمكن جمعه بسهولة ، وكميات الزيت بهذه الطريقة أقل ، ولكنها أحسن جودة من الأولى⁽¹⁾ .

وبناء على ذلك ، ازدهرت مراكز إنتاج الزيت في منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وتطورت بعض موانئه إلى مراكز للتوزيع ، وبرزت بعض الآليات التجارية المتبعة في تجارة الزيت ، وتعتبر المكابيل من أهمها ، إذ كان الزيت يخضع للكيل قبل عملية البيع وفق ما كان متفق عليه من قبل بعض الفقهاء ، بشأن تحديد آلية البيع والشراء في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرنين الثاني والرابع الهجريين / الثامن والعاشر الميلاديين ، وهو ما أدى إلى ازدهار حركة التجارة في الإقليم بأكمله .

آليات وأدوات تجارة زيت الزيتون

1 - المكابيل :-

تعتبر المكابيل من أهم الوسائل المستخدمة في التعامل التجاري بالحوض الغربي للبحر المتوسط ، لأن تجارة زيت الزيتون أحد أهم أشكال الوحدة بين ضفتيه الشمالية والجنوبية ، فأن تبادل السلع التي كان أهمها زيت الزيتون افرز نشاطاً تجارياً قوياً خاضع لبعض النظم التجارية ، على الرغم من أن المصادر التاريخية لم تتحدث بشكل واسع عن تلك التنظيمات المستخدمة في تجارة زيت الزيتون والمكابيل المتبعة في ذلك ، إلا أن بعض المعلومات نحصل عليها من النتف التي تتحدث عنها المصادر من أهمها البكري ، والمقدسي ، والقلقشندي ، وحاز الرطل البغدادي على شهرة واسعة في أسواق تجارة زيت الزيتون في الحوض الغربي خلال القرنين الثاني والرابع الهجريين ، إذ يسهب المقدسي في حديثه عن الأبطال بقوله : "أما الأبطال فكانت بغدادية في الإقليم كله"⁽²⁾ .

قال الإمام أشهب : بيع الزيت على الكيل إذا عرف وجه الزيت ونحوه فلا أرى به بأساً ، وأما بالرطل فإن كان القسط يعرف كم فيه من رطل ولا يختلف فلا بأس به ، وأن كان يختلف فلا خير فيه ، لأنه لا يدري ما أشتري ، لأن الكيل فيه معروف والوزن فيه مجهول⁽³⁾ .

1- برنشفيك روبار تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، 1988م ، ص 221 .

2- أبو عبد الله محمد ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط 2 ، مطبعة بريل 1990م ، ج 1 ، ص 340 ..

3 ابن أنس ، مالك الأصبحي ، المدونة الكبرى ، رواية : سحنون بن سعيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د ت) ، ص 198 .

وعدا الفقهاء الرطل البغدادي أساساً لقياس جميع المكاييل الداخلة في الحقوق الشرعية والمعاملات الدارجة في الأسواق، واختلفوا في تقديره، فقيل أنه (128)، وقيل (-128) درهماً، وقيل (130) درهماً بما يعادل (406,25) غراماً⁽¹⁾.

واستخدم القفيز كوحدة لمكيال الزيت، وأطلق عليه البكري، بالقفيز القروي نسبة للقيروان، وهو يساوي خمسة أرباع مكاييل قرطبة⁽²⁾.

تتفق المصادر على استخدام القفيز كأحد أهم المكاييل المستخدمة في تجارة الزيت، إذ يذكر القلقشندي، أن القفيز هو ست عشر وية، كل وية اثني عشر مداً قروياً، وهو ما يقارب المد النبوي صلح⁽³⁾.

ويؤكد ابن حوقل، بأن التعاملات التجارية في تجارة الزيت كانت بالقفيز عند حديثه عن أسعار الزيت بقوله: (وكان سعره ربما بلغ من ستين قفيزاً بدينار إلى مائة قفيز بدينار ...)⁽⁴⁾.

واختلفت المكاييل خلال القرنين الثاني والرابع الهجريين / الثامن العاشر الميلاديين من مدينة إلى أخرى من مدن الإقليم، أو كما أصرح في كل بلد من بلدانه في المعاملة على أرتال تتفاضل في الزيادة والنقصان، فمثلاً قفيز الزيت في مدن الضفة الجنوبية للمتوسط، يذكر البكري أن قفيز الزيت يساوي خمسة أرباع مكاييل قرطبة⁽⁵⁾، وهو ما يدل على أن القفيز كان من التعاملات التجارية المستخدمة في الضفة الشمالية، و يصفه المقدسي بأنه ستون رطلاً والرابع ثمانية عشر رطلاً⁽⁶⁾.

كما استخدمت في أسواق الحوض الغربي للبحر المتوسط بعض أنواع المكاييل في تجارة زيت الزيتون إضافة إلى القفيز، استعمل المطر الذي يسع خمسة أقفرة من الزيت، وكذلك القسط الذي يقدر بنصف صاع، وهو من المكاييل المألوفة في استخدامه لكيل الزيت⁽⁷⁾.

ومن التعاملات التجارية المتبعة أن يباع الزيت بالجملة، وكان المنادون وهم جماعة من الحمالون يكيلون الزيت عندما يتم بيعه بالجملة، إذ يوضع في الجرار حيث تتسع الواحدة منها مائة وخمسون رطلاً⁽⁸⁾. ويتم تجميع الزيت في موانئ المدن

1- حمودة، عبد الحميد حسين، أسواق القيروان في عصر الأغالبة، منشورات معهد البحوث والدراسات الأفريقية، القاهرة 2001م، ص 41 .

2- أبو عبيدة، المسالك والممالك ص 678

3- ابوالعباس احمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الباز للنشر، مكة المكرمة، ج 5، 1987 م، ص 109.

4- أبو القاسم، صورة الأرض، ص 78.

5- أبو عبيده، المسالك والممالك، ص 678.

6- أبو عبد الله، أحسن التقاسيم، ص 340.

7- حمودة، عبد الحميد، أسواق القيروان في عصر الأغالبة، ص 41 .

8- الوزان، الحسن، وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية للكتاب، 2005 م، ص 220.

الساحلية التي تشتهر بتصديره، تمهيدا لنقله من قبل التجار إلى أماكن أخرى، حيث أصبحت السفن التجارية تنتقل بين موانئ الحوض الغربي للبحر المتوسط لنقل الزيت، لجودته ووفرتة في مختلف مدن الإقليم .

2 - وسائل النقل:

شهدت منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرنين الثاني والرابع الهجريين /الثامن العاشر الميلاديين، حركة تجارية واسعة النطاق، إذ كانت السفن تأتي محملة بالبضائع من موانئ الضفة الشمالية بالخشب والقمح والسيج إلى موانئ الضفة الجنوبية، التي كانت سوقا رائجة لتلك المنتجات، وترد السفن محملة بالزيت لطيبه وجودته ورخص ثمنه. ويذكر جواتيابين، أن وحدة البحر المتوسط خلال العصور الوسطى، أنجزت من خلال حجم الإبحار الهائل، الذي تم في ذلك الوقت. ويصفه بأنه "البحر الذي يتوسط العالم وليس به مد". كما ورد في سجلات الجزيرة ذكر ما لا يزيد عن ستة عشر نوعا من السفن، وست وثلاثين نوعا من وسائل النقل التجاري، وأهم السفن الملاحية (القنبر) استخدمها البنادقة في القرن العاشر وأطلقوا عليها قماريا، في الوقت الذي يشير فيه اليونانيون والإيطاليون إلى القنبر على أنه الرجل المحارب، فأن الجزيرة عرفت على إنها سفينة لنقل البضائع الثقيلة والركاب، وهناك سفن يطلق عليها أسم (الغراب)، وهي تسير بمجاديف أو بدونها، وكانت تستخدم للسفر والنقل ولها فوائد حربية وملاحية، ولديها القدرة على الهرب في حال تعرضها لهجوم، وكذلك فهي أقل تعرضا لأنواء الرياح⁽¹⁾.

ومن السفن الشائعة في البحر المتوسط (الخنزيرة)، وهي تسمية غريبة لنوع من السفن إلا أنها دلت في لغة العصر على مدار العجلة، وعرفت أيضا باسم (الدوامة)، وتؤكد وجودها في صقلية، وتونس، وطرابلس⁽²⁾.

ساعد الموقع الجغرافي بعض موانئ الضفة الجنوبية للمتوسط، في نقل البضائع بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب، فهو يقع في منتصف الطريق بينهما وكان الوصول إلى صقلية منه سهلا حتى في سفن صغيرة، وأصبحت محطة للبضائع خاصة وأن السفن، لم تكن معتادة على الرحلات الطويلة من الغرب إلى الشرق⁽³⁾، إذ كانت مدينة المهديّة مرفأ للسفن، من صقلية، والأندلس، وغيرها⁽⁴⁾.

يستدل مما سبق، أن السفن التجارية كانت تنتقل بين موانئ الحوض الغربي للبحر المتوسط، وأن التجار عادة ما يستأجرون السفن لنقل بضائعهم، والتجول بها بين ضفتي المتوسط، إلا أن عامل الرياح كان يجبر في أغلب الأحيان

1- جواتيابين، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوسي، وكالة المطبوعات الكويت، 1980م، ص217.

2- جواتيابين، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ص222.

3- المرجع نفسه، ص225.

4- البكري المسالك والممالك، ج2، ص683، الحميري، الروض المعطار، ص652.

السفن على السير شمالا وجنوبا ، أو بالعكس. ويذكر البكري ، أن صفاقس كانت "محطا للسفن يقصدها التجار من الآفاق بالأموال الجزيلة لا بتياع المتاع والزيت"⁽¹⁾.

كانت وسائل النقل المتمثلة في السفن التجارية ، تلعب دورا رئيسيا في التواصل بين شمال الحوض وجنوبه، والذي مرده إلى سهولة الانتقال بين ضفتيه الشمالية والجنوبية إضافة إلى العوامل الطبيعية والمناخية ، ومدى ملائمتها لإتاحة الملاحة في الحوض الغربي للمتوسط ، ونشاط حركة التنقل دون التعرض إلى مخاطر الإبحار، خاصة وأن البحر المتوسط يعرف بأنه البحر الذي ليس له مد، ويتوسط العالم بأكمله ، مما يساعد على سهولة الملاحة والتواصل بين ضفتيه، وهو ما يؤكد ابن جبير عند ذكره لمدينة اطرابنش في جزيرة صقلية بقوله: "مرساها من أحسن المراسي وأوفقها للمراكب، ولذلك يقصد الروم كثيرا إليها، ولا سيما المقلعون إلى بر العدو، فإن بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة، فالسفر منها وإليها لا يتعطل شتاء ولا صيفا"⁽²⁾، ويضيف ابن جبير ، أن الرياح قد غيرت المركب الذي يتوجهون به إلى بلاد الأندلس من صقلية إلى جهة بر افريقية⁽³⁾.

ويذكر الحموي ، أن مدينة مسينة تجتمع بها السفن الكبار والمسافرون والتجار من بلاد الروم والإسلام⁽⁴⁾ ، ومدينة طبرقة اشتهرت بكثرة ورود المراكب والتجار عليها ونزولهم فيها⁽⁵⁾ ، ومدينة المرية كذلك مرسى آمن للسفن الأندلسية⁽⁶⁾.

وتدل المعلومات التي تذكرها المصادر الجغرافية عن السفن التجارية ووصولها إلى موانئ الحوض الغربي للبحر المتوسط ، على نشاط الحركة التجارية بين الجانبين. وعليه فإن وسائل النقل والتي غالبا ما تكون تجارية كما سبق الذكر، أسهمت بشكل كبير في إيجاد روابط التواصل بين ضفتي المتوسط ، وتنوعت حركة تبادل السلع التي كان من أهمها زيت الزيتون خلال القرنين الثاني والرابع الهجريين/ الثامن والعاشر الميلاديين الذي اقتصت به بعض موانئ الحوض الغربي للمتوسط ، حتى أنها اشتهرت بتجارته وتصديره إلى مناطق أخرى ، استنادا إلى ما تذكره المصادر خلال تلك الفترة، حيث أصبحت مدينة صفاقس على سبيل المثال مرفأ للسفن يقصدها التجار في كل وقت وميناء لتصدير الزيت، وتدل المعلومات على أن تلك السفن ، كانت تنتقل بين موانئ الحوض الغربي للمتوسط ، لأن معظم تلك الموانئ مأمون من الرياح، وعلى حسب ذكر البكري أن مدينة "جزائر بني مزغني مرساها مأمون من الرياح يقصد إليها أصحاب السفن من أفريقية والأندلس"⁽⁷⁾،

1- البكري ، المسالك والممالك ، ج2 ، ص 668 .

2- ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت 1964م ، ص 308 .

3- المصدر نفسه ، ص 318 .

4- الحموي ، ياقوت بن عبد الله ، معجم البلدان ، دار صادر بيروت ج2 ، ص 559 .

5- ابن حوقل ، أبو القاسم ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ط2 ، 1979م ، ص 76 .

6- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان، (د ت) ص 253 .

7- أبو عبيدة ، المسالك والممالك ، ج2 ، ص 732 .

و"تخط المراكب إلى مدينة طرابلس ليلا ونهارا وترد عليها بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحا ومساء، من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة"⁽¹⁾.

ساعدت تقابل المدن في الضفة الشمالية والجنوبية على تنقل السفن التجارية بين موانئ الحوض الغربي للمتوسط ، ويمكن أن نستشهد بما ذكره أبووصه في حديثه عن الإبحار شمالا وجنوبا في حوض البحر المتوسط ، وفي تحديد مواقيت التنقل " أن اتجاه الرياح طوال موسم الإبحار "إبريل - نوفمبر" يعد من أهم العوامل التي فرضت نسق التنقل شمال جنوب، وأن التنقل والإبحار من الشرق إلى الغرب كان أقل بكثير"⁽²⁾، وهو ما يؤكد على التواصل بين ضفتي المتوسط في فترات تاريخية سابقة لفترة الدراسة.

إضافة إلى ذلك ، نجد أن التقابل بين مواني ضفتي الحوض الغربي المتوسط واضحا ، فمثلا موانئ مدن المغرب لها ما يقابلها من موانئ مدن الأندلس، متمثلا في مدينة بجاية التي تقابلها مدينة طرطوشة⁽³⁾، كما أن كل ميناء من أرض أفريقية يقابل ميناء بالأندلس وصقلية، ومن ذلك أنه من مدينة الجوس بجزيرة شكيل "الوطن القبلي" قرب قليبية كانت تنطلق السفن باتجاه صقلية، وكذلك من قصر الجوس بين سبته وطنجة كانت تنطلق السفن نحو بلاد الأندلس⁽⁴⁾.

ويذكر القزويني أن جزيرة صقلية وصلها بعض من سكان أفريقية خلال القرن الثاني الهجري، ويرجع ذلك إلى قرب المسافة بين الجانبين⁽⁵⁾، وأن مدينة سوسة تقابل صقلية لأن بها سند عال ترى دورها من البحر إذا قصدها التجار من صقلية، ومدينة مرسى الخرز قريبة من سردانية بينهم نحو مجرأين فقط⁽⁶⁾، إضافة إلى مدينة طنجة التي اعتبرت محطة للسفن اللطاف لأن الرياح الشرقية تؤدي فيه⁽⁷⁾.

ويضيف ابن خلدون بأن القرن الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، أصبحت فيه جزر البحر المتوسط مثل، مالطا، وصقلية، وسردينيا محطات للسفن التجارية، فأنت العرب المسلمين أصبحت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدة الشمالية⁽⁸⁾.

1- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 72 .

2- محمود أحمد ، دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط ، منشورات فالتينا مالطا ، 2000 ، ص 19 .

3- القزويني ، زكريا بن محمد ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، 1969م ، ص 276 .

4- باشا ، نجاة ، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى الثامن للهجرة ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، 1976م ، ص 83 .

5- زكريا بن محمد ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص 691 .

6- البكري ، المسالك والممالك ، ج 2، ص 718 .

7- المصدر نفسه ، ج 2، ص 787 .

8- عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، (د ت) ، ص 245 .

النظم التجارية المستخدمة في تجارة زيت الزيتون

1- الأسواق :-

انتشرت الأسواق بالحوض الغربي للبحر المتوسط في مختلف المدن ، وظهرت الاختصاصات في معظم الأنشطة التجارية القائمة خلال القرنين الثاني والرابع الهجريين / الثامن العاشر الميلاديين. وبما أن تجارة زيت الزيتون تعتبر أحد أهم التعاملات التجارية الراجعة، إضافة إلى الإقبال عليها من التجار نتيجة زيادة الطلب في الاستهلاك خاصة في مدن الضفة الشمالية للمتوسط خلال فصل الشتاء، وبناء على ذلك، ظهرت الأسواق المتخصصة في الحوض الغربي للمتوسط ، حيث يسهب ابن حوقل في وصف أسواق بعض المدن الشمالية بقوله : "فكانت أسواق مدينة الخالصة في صقلية بها سوق الزيتون والصبارفة"⁽¹⁾.

يذكر الإدريسي أن بمدينة المرية باب يسمى باب الزيتون ويرجع ذلك إلى أن معاصر الزيت قريبة من تلك المدينة الساحلية التي تشرف على الميناء ، بالتالي يكون الزيت قريب منه حتى يتم نقله بسهولة لتصديره ، كما كان بأشبيلية باب يعرف بباب الزيت ومنه تخرج شحنات الزيت لتصديرها⁽²⁾.

يذكر الحميري أن مراكب أهل أشبيلية وسائر المدن الساحلية من بلاد الأندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع ويقصدها أهل أشبيلية بالزيت الكثير ويتجهز منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية⁽³⁾.

كانت الأسواق في الحوض الغربي للبحر المتوسط تعمل على تنظيم العملية التجارية وتسهيلها، فظهرت التخصصات بينها ، فكل سوق يختص بنشاط تجاري محدد يستدل عليه من أبواب المدينة في بعض الأحيان ، التي كان من أهمها، باب الزيتون وسوق الزيتون .

وبناء على ذلك، نشطت الحركة التجارية خلال القرنين الثاني والرابع الهجريين / الثامن والعاشر الميلاديين ، وأصبحت موانئ الضفة الشمالية والجنوبية للمتوسط ، أماكن لوصول السفن التجارية المحملة بالسلع والبضائع من كل الجهات ، وتعدى الأمر أن أصبحت تلك الموانئ نتيجة لقربها من مراكز الإنتاج ، في أغلب الأحيان أسواقا يرتادها التجار للحصول على الزيت خاصة وأن أسعاره في تلك الأماكن تكون رخيصة، وبمعنى آخر أصبحت الأسواق تعقد في الموانئ لتبادل البضائع .

1- أبو القاسم ، صورة الأرض ، ص 114 .

2- أبو عبد الله محمد ، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، مج 2 ، 1983 م ، ص 178 .

3- محمد عبد المنعم ، الروض المعطار ، ص 59 .

و يذكر البكري ، أن مدينة صفاقس " كانت محطاً للسفن يقصدها التجار من الأفاق لابتياح المتاع والزيت"⁽¹⁾، ومدينة طبرقة عامرة لورود التجار إليها"⁽²⁾، " وأن بونه يعمها التجار الأندلسيون"⁽³⁾.

كان التبادل هو السمة الرئيسية لتجارة ضفتي البحر المتوسط الذي يأتي زيت الزيتون من أهم المنتجات الزراعية، وكذلك مستخرجاته من الصابون والشمع تأتي في الصدارة وعليه امتلأت موانئ الحوض الغربي مثل صفاقس والمهدية وسوسة والمرية بتصدير الزيت الذي اشتهرت به غابات الزيتون في منطقة الساحل، ومدينة أشبيلية التي يجتمع بها الزيت من جبال الشرف، إذ يعتبر زيتته من أطيب الزيوت ويتجهز به إلى الأفاق برا وبحرا⁽⁴⁾.

كما كانت ترد السفن من الضفة الشمالية على الموانئ الجنوبية للحوض الغربي للمتوسط محملة بالمواد الرائجة في الإقليم⁽⁵⁾، أما الواردات فكانت تتركز على زيت الزيتون كما سبق الذكر من صفاقس فكان التجار الصقليون يقصدون مينائها من أجل هذا الغرض إذ يوصف بأنه ميناء الزيت⁽⁶⁾. كما كانت سوسة سوقاً لزيت الزيتون وترسانة بحرية وثيقة الصلة بصقلية⁽⁷⁾.

تميز البنادقة والأماطيون بصفة خاصة في التردد على موانئ الضفة الجنوبية، ومن جهة أخرى كان التجار المسلمين يحصلون على أدن السفر إلى صقلية ويقومون بنشاطاتهم ويعودون إلى أوطانهم، وهو ما زاد من الاهتمام بالعلاقات التجارية بين الطرفين، وانتهجت أمالفي خاصة سياسة الصداقة مع العرب المسلمين واستفادت من توسيع مبادلاتها التجارية، ففي سنة 258هـ / 871م كان بالمهدية مواطنين من أمالفي يشتغلون بالتجارة بها⁽⁸⁾. وخضعت أسعار الزيت في الأسواق لوفرة الإنتاج من عدمه، بمعنى أن الأسعار تخضع إلى العرض والطلب، كما تتأثر بوفرة الأمطار وقتلتها وظروف الحرب أو عدم وصول السفن المتوقع وصولها أو وصول سفن غيرها⁽⁹⁾.

1- البكري ، المسالك والممالك ج2، ص 669، الحميري ، الروض المعطار ، ص 366 .

2- البكري المسالك والممالك ، ج2، ص 720 .

3- المصدر نفسه ، ص 717 .

4- الحميري ، الروض المعطار ، 340 .

5- بونو ، سلفا تورى ، العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط ، ترجمة عمر محمد الباروني ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول 1986م ، ص312 .

6- البكري المسالك والممالك ، ج2، ص669 ، مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص 1716 .

7- ارشيبالد ، لويس ، القوي البحرية والتجارية في البحر المتوسط ، ترجمة احمد عيسى مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، (د.ت) ، ص 253 .

8- المرجع نفسه ، ص 313 .

9- جواتاين ، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، ص 243 .

كان البعض يتحايل على التجار في تحديد الأسعار بالأسواق ، وعلى سبيل المثال أن "أهل سرت لا يتعاون إلا بسعر قد اتفقوا عليه وربما نزل المركب بساحلهم مسوقاً بالزيت وهم أحوج الناس إليه، فيعمدون إلى الرقاق الفارغة فينفخونها ويضعونها في حوانيتهم ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم كثير وبائر"⁽¹⁾.

تشير أحد المصادر التاريخية إلى المعاهدات التي عقدت و تتضمن بنوداً تجارية تنص على تبادل السلع ، منها المعاهدة التي عقدت بين أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب وجرجوري حاكم صقلية سنة 192هـ ، أسهمت في تحقيق الرواج التجاري بين أفريقية وصقلية وأصبح التجار من كل الطرفين يرتادون الأسواق للمتاجرة فيها فاستورد الأغلبية السكر من صقلية وصدروا إليها زيت الزيتون⁽²⁾.

وبذلك فالأسواق عادة ما تقام بالقرب من الموانئ لكي يسهل نقل الزيت منها إلى السفن التجارية القادمة واستلزم ذلك إقامة الفنادق لإقامة التجار فيها والتي عادة ما تكون إقامتها بجوار الأسواق خاصة وأن القرن الرابع الهجري شهد نشاطاً للتجارة في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، إذ استغنى التجار الأوروبيين عن وساطة اليهود بينهم وبين المسلمين، فاجتمع النصارى في داخل المدن الإسلامية في منازل وفنادق يستودعون فيها بضائعهم وتجري فيها العمليات التجارية، إذ أصبح الفندق بالإضافة إلى كونه مستودع للبضائع سوقاً يزدحم داخلها الحمالون والمترجمون والمحرون لصفقات البيوعات الرسمية⁽³⁾.

ويعتبر رخص الأسعار وطيبة الزيت وجودته في صفاقس من العناصر الأساسية المشجعة على تجارته من قبل تجار صقلية، يذكر ابن حوقل "ولها منه ما ليس بغيرها مثله، كان سعره ربما بلغ من ستين قفيز بدينار إلى مائة قفيز بدينار حسب السنة وبيعها"⁽⁴⁾.

وعليه شجعت تلك الأسعار التجار على تحول مدينة صفاقس من مركزاً للإنتاج إلى أحد أهم مراكز التصدير في الضفة الجنوبية للحوض الغربي للمتوسط، معتمدة بذلك على وفرة الإنتاج من الزيت الذي يأتيها من غابات الساحل، وهو ما شجع التجار على النزول بها وشحن زيتها إلى موانئ الشمال لسد العجز في الاستهلاك في فصل الشتاء، وهو ما أفرز شبكات للتواصل بين الشمال والجنوب أساسها تبادل السلع، خاصة وأن التجار غالباً ما يبيعون سلعهم وتجارتهم ويفضلون العودة إلى بلدانهم محملين بالبضائع وهو ما يؤكد على أن الأسواق في الحوض الغربي للمتوسط اعتمدت على بعض المعاملات التجارية التي ارتبطت بتجارة الزيت ، الأمر الذي أسهم في بروز نظام الشركة بين تجار الحوض الغربي للبحر المتوسط ، كأحد أهم التنظيمات المستخدمة في تجارة الزيت في الإقليم .

1- الحميري ، الروض المعطار ، ص 312 ، مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص 109 .

2- ارشيبالد ، لويس ، القوى البحرية ، ص 176

3- باشا ، نجاه سويسبي ، التجارة في المغرب الإسلامي ، ص 78

4- ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 78 .

2- الشركة :

الشركة لغة: هي خلط أحد المالين بالآخر بحيث لا يمتازان عن بعضهما . واصطلاحاً: يختلف باختلاف أنواعها لأن الشركة تنوع إلى شركة مفاوضة وعنان وأبدان ووجوه⁽¹⁾ وهي تكون بين شخصين أو أكثر، وتكون بالتساوي في رأس المال والأرباح⁽²⁾. ويقال : اشتركنا بمعنى تشاركنا ، وقد اشترك الرجلان وتشاركنا ، أو شارك الرجل أحدهما الآخر ، وتشاركنا في كذا وشركته في البيع ، وأشرك فلان فلانا في البيع إذا أدخله مع نفسه فيه ، والمقصود بالشركة ، الشركة في رقاب الأموال على الإشاعة وأما إن لم تكن رقاب الأموال فليست شركة ، وإنما هي خلطة ، فكل شريك خليط وليس كل خليط شريكا، والخلطة أعم من الشركة ، وتستدعي الشركة أموالا كبيرة حيث أن التجار يعتمدون على البضائع التي تحتوي على رأس مال كبير، ويستدعي الأمر التعامل عن طريق شركة يسلم بموجبه صاحب رأس المال إلى التاجر مالا يشتري بها بضاعة معينة ويكون الربح بينهما بالتساوي، وسئل أبو محمد عن رجل دفع إلى رجل مالا وهو صاحب سفينة على أن يعمل في أي تجارة شاء من أي بلد شاء ويحمله في مركبه بالكراء و الربح بينهم⁽³⁾ يذكر الإمام سحنون ، أنه سمع من الإمام مالك ، أن الشركة لا تجوز إلا على التكافؤ في الأموال ، ولا تصلح الشركة إلا في المال ، والعين والعمل ، ولا تصلح الشركة بالدمم إلا أن يكون شراؤهما في سلعة حاضرة أو غائبة إذا حضرا جميعا الشراء، وكان أحدهما حميلاً بالآخر .

قال ابن المنذر: أجمع العلماء على جواز الشركة ، التي يخرج فيها كل واحد من الشريكين مالا مثل مال صاحبه ، من نوعه دراهم أو دنانير ، ثم يخلطانهم حتى يصيرا مالا واحد بلا تمييز . على أن يبيعا ويشتريا ما رأيا من أنواع التجارة ، وعلى أن ما كان من فصل ، فهو بينهما بنصفين ، وما كان من خسارة فهو كذل .

أجاز بن القاسم الشركة بالطعام من صنف واحد ، قياسا على جوازها في الصنف الواحد من الذهب والفضة ، ومنعها الإمام مالك ، إذ رأى أن الأصل هو أن لا يقاس على موضع الرخصة بالإجماع ، وقيل أن وجه كراهية مالك لذلك، أن الشركة تفتقر إلى الاستواء في القيمة ، والبيع يفتقر إلى الاستواء في الكيل ، فافتقرت الشركة بالطعام من صنف واحد إلى استواء القيمة والكيل ، وذلك لا يكاد يوجد ، فكره مالك ذلك ، فهذا هو اختلافهم في جنس محل الشركة .

1- الجزيري ، عبد الرحمن ، الفقه على المذاهب الأربعة ، دار الطباعة ، مصر ، ط 2 ، 1952 م ج 3، ص 83 .

2 - ابن منظور ، محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، مج 10 ، (د ت) ، ص 448 . 450 .

3- شرف الدين ، لمياء محمد ، بعض ملامح أزمة أفريقية الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس 1999م،

أقسام الشركة :

يرى المالكية أن الشركة تنقسم إلى شركة : مفاوضة ، وعنان ، وجبر ، وعمل وذمم ، ومضاربة . وقد عرف بعضهم الشركة المالية التجارية ، بأنها عبارة عن إذن كل واحد من الشريكين أو الشركاء للآخر ، في أن يتصرف في مال يملكه على أن كلا منهما يتصرف لنفسه للآخر ، فكل من الشريكين يعمل في مال الآخر لصاحبه ولنفسه بخلاف الوكيل ، فإنه يعمل في مال الموكل للموكل خاصة ويرى فقهاء الحنفية ، أن الشركة تنقسم إلى قسمين : شركة ملك ، وشركة عقود .

أما شركة الملك ، فهي أن يمتلك شخصان فأكثر عينا من غير عقد الشركة ، وتنقسم إلى قسمين : اختيارية وإجبارية . وشركة العقود هي عبارة عن العقد الواقع بين اثنين فأكثر للاشتراك في مال وربحه ، بأن يقول أحد الشريكين شاركك في كذا ، ويقول الآخر قبلت ، وتنقسم إلى ثلاثة أنواع هي ، المال ، والأبدان ، والوجوه ، ويرى الحنابلة إن الشركة تنقسم إلى قسمين : شركة في المال . وشركة في العقود . وشركة المال ، هي اجتماع اثنين فأكثر في استحقاق عين يارث أو شراء أو هبة . أما شركة العقود فهي اجتماع اثنين فأكثر في التصرف ، وقال الشافعية إن الشركة الجائزة نوع واحد وهي شركة العنان ، بأن يتعاقد اثنان فأكثر على الاشتراك في مال للتجار فيه ، ويكون الربح بينهما على نسبة أموالهم⁽¹⁾ .

يتضح مما سبق ، أن الشركة كانت أحد التعاملات التجارية في الحوض الغربي للمتوسط ، خاصة وأنها تستوجب الحصول على وسيلة النقل المتمثلة في السفن التي تصعب على التاجر القيام بنقل بضاعته في عرض البحر . سئل الإمام سحنون (ت 240 هـ / 854 م) ، عن رجلين لهما سفينة فأراد أحدهما أن يحمل في نصيبه متاعا وليس لصاحبه شيء يحمل ، فقال الذي ليس له شيء لا أدعك تحمل فيها شيئا إلا بكراء ، قال الآخر أنا أحمل في حصتي ، فأجاب عن ذلك بقوله : إن يحمل في نصيبه ولا يقضي عليه لشريكه بكراء ، فإما أن يحمل مثل ما حمل صاحبه من الشحنة والمتاع ، وإلا بيع المركب عليهما⁽²⁾ . فلا يجوز لأي من الشريكين القيام بأي عمل يمس حصة الشريك الآخر إلا بعد موافقة ذلك الشريك الصريحة .

الخلاصة

من خلال البحث في موضوع تجارة زيت الزيتون بالحوض الغربي للبحر المتوسط تبين أن الموقع الجغرافي أسهم في نمو وازدهار التجارة بين ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية ، كما شجعت العوامل المناخية والطبيعية المتشابهة والمتطابقة على انتشار بعض المزروعات في الإقليم التي كان من أهمها أشجار الزيتون المنتشرة بكثافة في سواحله لدرجة أن ارتبط مناخ شجرة الزيتون بمناخ البحر المتوسط .

1 - الونشريسي ، المعيار ، ج 8 ، ص 308 .

2 . يودفيتش ، أبراهم ، الشركة والربح في الإسلام خلال العصر الوسيط ، تحقيق : محمود أحمد أبوصوة ، منشورات ، فاليتا مالطا 1999م 3 . الجزيري ، الفقه على المذاهب الأربعة ، ج 3 ، ص 110.102 .

وبناء على ذلك، شجعت العوامل المناخية على انتشار أشجار الزيتون بكثافة في الإقليم، الذي أصبح يمتاز باحتوائه على منتج الزيت، وأصبحت موانئه مراكز لتصديره إلى كل الجهات، وهو ما أسهم في قدوم التجار إلى موانئ الحوض الغربي للبحر المتوسط ونشاط الحركة التجارية بها، حتى أصبحت وسائل النقل المتمثلة في السفن التجارية ترسو على كافة موانئه محملة بالبضائع من كل الجهات، ومبادلتها بسلعة زيت الزيتون، إضافة إلى ذلك عرفت منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط العديد من التعاملات التجارية، فظهرت الشركة في التجارة في السلع والبضائع بين التجار في ضفتي المتوسط حسب الاحتياجات، وهو ما شجع على إقامة الأسواق التجارية التي أصبحت ضرورية لرواج السلع والبضائع واستقرارها في المنطقة.

وبناء على ما سبق فإن التواصل والتكامل كان السمة القائمة داخل الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرنين الثاني والرابع الهجريين / الثامن والعاشر الميلاديين، إذ كانت التجارة الرائجة بين موانئه أساسه، والعلاقات التجارية التي كانت قائمة فيه من أهم مقومات الوحدة بين ضفتيه توحدتها أكثر مما تفرقتها، وهي من الأشياء المسكوت عنها ولم يتم البحث فيها ودراستها بالشكل المطلوب، الذي نأمل أن يكون هذا البحث قد ابرز ولو بشكل بسيط أهم ملامحها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

1. الإدريسي، أبو عبد الله محمد (ت 548هـ / 1153م)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، مج 2، 1983 م .
2. الأنصاري، محمد بن أبي طالب (ت 727هـ / 1326 م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (د ت)، ج 1 .
3. البكري، أبو عبيدة، المسالك والممالك، (ت 487هـ / 1094 م)، تحقيق وتقديم أدريان فان ليوفان وانذري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، ج 1، ج 2 .
4. التجاني، أبو محمد عبد الله بن احمد (ت 717هـ / 1317 م)، رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العلمية للكتاب 2005 م .
5. ابن أنس، مالك الأصبحي، المدونة الكبرى، رواية: سحنون بن سعيد، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت ج)
6. ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت 1964م .
7. ابن حوقل، أبو القاسم (ت 380 هـ / 990 م)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1979 م .
8. ابن خلدون، المقدمة، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط4، 2003 م .

9. ابن منظور، مُجَدِّد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر بيروت، مج 10 (د ت) .
10. الحموي ، ياقوت بن عبد الله ، معجم البلدان ، دار صادر، بيروت ، ج2، (د ت).
- 11 . الحميري مُجَدِّد بن عبد المنعم، (ت 900هـ/1494م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس ، مكتبة لبنان، بيروت 1975م
- 12 . أبو الفداء، إسماعيل بن مُجَدِّد، (ت732 هـ / 1332م)، تقويم البلدان، دار صادر بيروت، (د ت) .
13. القزويني، زكريا بن مُجَدِّد، (ت682هـ / 1281م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د ت).
14. القلقشندي، أبو العباس احمد، (ت 821هـ / 1420م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، (د ت)، ج 5 .
15. المقدسي، أبو عبد الله مُجَدِّد بن احمد (ت387هـ / 997م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل 1990م، ط2، ج 1 .
- 16- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الأفاق العربية، بغداد 1986 م .
17. الوزان، الحسن، وصف أفريقيا ترجمة عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية للكتاب 2005م.
- 18- الونشريسي، احمد بن يحيى (ت914هـ / 1508م) المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب، تحقيق: مُجَدِّد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981م، ج9، 8.
- ثانيا : المراجع العربية :

1. باشا، نجاه، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1976 م .
2. الجزيري، عبد الرحمن ، الفقه على المذاهب الأربعة ، دار الطباعة ، مصر ، ط2 ، 1952م، ج 3 .
3. جودة، جودة حسنين، جغرافية أوروبا الإقليمية، دار النهضة العربية، بيروت ط5، (د ت).
4. _____، الجغرافيا المناخية والحيوية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م.
5. الجوهري، يسري، جغرافية البحر المتوسط، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1984م.

6. حسن، مُجَّد إبراهيم، جغرافية الوطن العربي وحوض البحر المتوسط، جامعة الإسكندرية، ج2، 2001 م .
 7. — ، الجغرافية الإقليمية والاقتصادية، مركز الإسكندرية للكتاب، 1998م.
 8. حمودة، عبد الحميد، أسواق القيروان في عصر الأغالبة، منشورات معهد البحوث والدراسات الأفريقية، القاهرة 2001 م .
 9. الديق مُجَّد محمود، جغرافية الزراعة، تحليل في التنظيم المكاني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د ت) .
 10. رياض، مُجَّد، الجغرافيا الاقتصادية وجغرافية الإنتاج الحيوي، دار النهضة العربية، بيروت ط4، 1996م .
 11. سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان 1969م .
 12. سعودي مُجَّد، الوطن العربي، دراسة في ملامحه الجغرافية، دار النهضة العربية بيروت، (د ت) .
 13. أبوسمور، حسن، الجغرافية الحيوية والتربة، دار المسيرة للنشر، عمان الأردن، 2005م
 14. الشامي، صلاح الدين، فؤاد مُجَّد الصقار، جغرافية الوطن العربي الكبير، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1972م .
 15. شرف الدين، لمياء مُجَّد، بعض ملامح أزمة افريقية الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس 1999م .
 16. صادق، دولت احمد، علي ألبنا، أسس الجغرافيا العامة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1966م .
 17. أبو صوة، محمود أحمد، دراسات في تاريخ البحر المتوسط في العصر الوسيط، منشورات فآلتينا، مالطا 2000م .
 18. الطالبي، مُجَّد، الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985م
 19. طرفان، إبراهيم علي، المسلمون في أوروبا العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1966م .
 20. عباس، قاسم الرائد في الجغرافيا، دار الرائد العربي ن بيروت لبنان، 1980 م
 21. عقيل، مُجَّد فاتح، جغرافية الموارد والإنتاج، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، (د ت) .
- ثالثا : المراجع الأجنبية المعربة :

1. برجيس، ي.م.،، ترب العالم، ترجمة سامي عبود العامر، دار المريخ للنشر، الرياض 1986م.

2. برنشفيك ، روبر ، تاريخ أفريقية في العهد الحفصي ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، 1988م ،
3. بلوية، بريان، قصة مالطا، ترجمة : مصطفى جودة، بيروت، لبنان، 1969م .
- 4 . بونو ، سلفا توري ،العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط ترجمة عمر مُجّد الباروني، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول 1986م ص ص 309-320 .
5. تيلور ،جرفيت، الجغرافية في القرن العشرين، ترجمة مُجّد سيد غلاب ، مُجّد مرسي أبو الليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م .
- 6 . جواتيابين س.د، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت 1980م .
7. لومبارد، لويس، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر (د ت) .
- 8- لويس، آرشيبالد، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100م) ترجمة أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د ت) .
9. يودفيتش ، أبراهم ، الشركة والربح في الإسلام خلال العصر الوسيط ، تحقيق: محمود أحمد أبوصوة ، منشورات ، فآليتة مالطا 1999م.